اتساق المبنى والمعنى في النّظم القرآني - دراسة دلاليّة -

The consistency of structure and meaning in the Qur'anic system
- semantic study -

الدكتور: نعمان سلطاني
قسم اللّغة والأدب العربي _ جامعة محمد بوضياف _ المسيلة (الجزائر)
soltani.nomane79@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/09/05 تاريخ القبول: 2019/09/16

ملخص:

يتناول المقال نماذج بسيطة تبين عن مدى اتّساق وانسجام المبنى مع المعنى في النّظم القرآني وهو دليلٌ مادي على نفي وجود الترادف في لغة القرآن الكريم، ووجه من وجوه الإعجاز في بلاغة النّص القرآني. ويتجلى ذلك فيما توصلت إليه نظريَّة النَّظم للجرجاني، لأنَّه سحر لغوي نشأ وترعرع في رحاب الإعجاز القرآني، إذْ هو أحد وجوه الإعجاز اللُّغوي، ولا سيَما البياني، وله ارتباطٌ وثيقٌ بالدراسات السياقية الحديثة؛ إذْ بفهم نظريَّة النَّظم يزول الغموض المكتنف للألفاظ المتقاربةِ المعاني المظنونِ ترادفُها، فضلاً عن اعتمادنا على موروثنا اللُّغوي قبل الدَّرس اللّساني الغربي الحديث. فقد كان علماء العرب القدامى على درايةٍ عميقةٍ بأهمية السّياق في الكشف عن المعاني الخفيّة والدّلالات القصية.

الكلمات المفتاحية: مبنى؛ معنى؛ نظم؛ اتساق؛ دلالة؛ قرآن

Abstract:

The article deals with simple models that show the consistency and harmony of the building with meaning in the Qur'anic systems, which is a physical evidence of the denial of the existence of tandem in the language of the Holy Quran, and the face of miracles in the eloquence of the Qur'anic text. This is reflected in the theory of the systems of al-Jarjani, because it is a linguistic magic that grew up in the renaissance of Quranic miracles, as it is one of the facets of linguistic miracles, especially the graphic. It is closely related to the modern contextual studies. By understanding the theory of systems, As well as our dependence on our linguistic heritage before the

modern Western linguistic lesson. Ancient Arab scholars were profoundly aware of the importance of the context in revealing hidden meanings and stylistic connotations.

Key words: structure; meaning; system; consistency; semie; Quran

تمهيد:

لعلماء البلاغة العرب فضلٌ كبيرٌ في لملمة المعاني التي انفردت بها ألفاظ القرآن الكريم، وذلك تأكيدًا لسمو النّظم القرآني على فصاحة وبلاغة البشر، وخوفًا من اندِثار تلك المعاني، فقاموا يؤلفون في ذلك معاجم مختصة، تهتم بكشف الفروق الدّقيقة بين الألفاظ التي يظن بترادفها، وهو عمل جليلٌ يكشف عن مدى حرص علماء العرب القدامى على فهم وحفظ عربيّتهم من أخطار التّغير والتّبدل ودليلٌ مادي على قداسة اللّغة العربيّة عندهم، فهي (العربية) تستمد هذه القداسة من كونها الحامل المادي لمعاني القرآن الكريم.

وقد فنّد سحر بيانها ودقّة نظمها وجود للتّرادف في القرآن الكريم جملةً وتفصيلاً، وإنما هناك فروقٌ دلاليةٌ دقيقةٌ بين ألفاظه، تجعل منها مفرداتٍ تتمايز من حيث الدّلالة، ضمن سياقاتٍ مضبوطةٍ تقتضيها مقاماتٌ محدّدةٌ.

وقد أوردت كتب البلاغة والتّفسير جملةً من هذه الألفاظ، تثبت ما ندعو إليه، وتؤيّده، ومن ذلك:

تفريقه بين (**الفؤاد**) و(**القلب**)، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ (القصص 10). ورد لفظ (فَأْدٌ) في اللُّغة بمعنى حُمّى وشدَّة حرارة لقول ابن منظور في اللِّسان:" فَأَدَ الخُبزَة في المَلَّة يفأَدُها: شَوَاهَا.. والفَئِيدُ ما خُبِزَ وشُوِيَ على النَّار.. وفَأَدَ اللَّحْمَ في النَّارِ يَفْأَدُهُ فَأْدًا، وافْتَأَدَهُ فيها: شَوَاهُ "(1). أمَّا في الغريب للأصفهاني: " الفُؤَادُ كالقَلْبِ ولكن يقَالُ لَهُ فؤَادٌ إذَا اعتُبِرَ فِيه مَعْنَى التَّفَؤُّد، أي التَّوَقُّد "(2).

أمَّا القلبُ فهو مُضْغَةٌ من الفُؤَاد مُعلَّقَةٌ بالنِّيَاطِ، لقول ابن منظور في اللِّسان: "الفُؤَادُ غِشَاءُ القَلبِ والقَلبُ حَبَّتُهُ وسُوَيْدَاؤُهُ "(3)، أمَّا في المفردات للأصفهاني: " قيل سُمِّيَ (قَلبًا) لكثرة تَقَلُّبِه بالقَلْب عن المعاني التي تختصُّ به، من الرُّوح والعِلم والشَّجاعة، وغير ذلك"(4).

ومن خلال هذه التَّعاريف اللُّغويَّة نجد الفُؤاد أنسب للاستعمال في سياقات الانفعال العاطفي لاستغراقه على ألطف المعاني؛ كالفزع والخوف والرَّأفة..الخ، و دليل ذلك قول الحقّ ﷻ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم 37).

فمقام الآية الأولى مقام فزَع؛ فعبَّر بالفؤاد عن الفراغ والخلاء؛ لسرعة تفَؤُّده؛ أي حرارته وانفعاله وبعد السَّكينة والطُّمأنينة عبَّر بالقلب، وفي ذلك لفتةٌ بيانيَّةٌ طريفةٌ، توحي بالظِّلال النَّفسيَّة لمعاني القرآن.

كما فرق بين **(راعِنا)** و**(انظُرنا)**، حيث نهى عن قول الأولى[5]، وذلك في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة 104). ورد في اللِّسان: "الأَرْعَنُ الأَهْوَجُ في مَنْطِقِهِ المسْتَرْخِي، والرُّعُونَةُ الحُمْقُ والاسترْخَاءُ، رَجُلٌ أَرعَنٌ وامرَأَةٌ رَعْنَاءٌ بَيِّنَا الرُّعُونَةِ، والرَّعَنِ أيضًا، وَمَا أَرْعَنَهُ، وقد رَعُنَ (بالضَّمِّ) يَرْعُنُ رُعُونَةً، ورَعَنًا.. وَرَاعِنَا هي كلمة كانوا يسبُّون بها النَّبي ﷺ.. قال ثعلب: لأنَّ اليَهود كانَت تَقول للنَّبي ﷺ رَاعِناَ أو رَاعُونَا (على زِنَة فَاعِلُونَا) وهي من السَّب عندَهم"[6]، وفي تفسير الجلالين: يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا للنَّبي ﷺ رَاعِنَا فهو أمرٌ من المرَاعاة، وكانوا يقولون له ذلك، وهي بلغة اليهود سبٌّ.. من الرُّعُونَة، فسُرُّوا بذلك وخاطَبوا بها النَّبي ﷺ، فنهَى الله المؤمنين عنها، وأمرهم أن يقولوا بدلها (انْظُرْنَا)؛ أي: انظرْ إلينا. وفي التَّفسير الميسَّر: يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا للرَّسول ﷺ رَاعِنَا؛ أي: رَاعِنَا سمعك، فافهم عنَّا وأفهمنا؛ لأنَّ اليهود كانوا يقولونها للنَّبي ﷺ يلوون ألسنتهم بها، يقصدون سبَّه ونسبته إلى الرُّعُونة وقولوا . أيُّها المؤمنون . بدلاً منها: انْظُرْنَا، أي انْظُرْ إلينا وتعهَّدْنا.

والأمر نفسه في التَّفريق بين **(العاقر)** و**(العقيم)**، فكلّ لفظٍ مرتبطٌ بسياقٍ معيّن، قال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا **(4)** وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا **(5)**﴾ مريم

يقابله قوله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿أو يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ (الشّورى 50). فالعَقْرُ عند الرَّاغب الأَصفهاني الأَصلُ؛ إذ يقول:" عُقْرُ الحوضِ أو الدَّارِ وغيرُهما أصلُهما، وعَقَرْتُ النَّخْلَ قَطَعْتُهُ من أصله.. ومنه استُعيرَ سرجٌ مُعْقَرٌ، وكلبٌ عَقُورٌ، ورجلٌ عَاقرٌ.. وامرأةٌ عاقرٌ لا تلدُ كأنَّها تَعْقِرُ مَاءَ الفَحْلِ.."[7]؛ فكون رحِمِها مَعْقُورًا (مقطوعًا) فهي تُعْقِرُ (تُسقِط) ماءَ الفحلِ (نُطَافَهُ). والعَقْرُ صفةٌ عارضةٌ على المرأة، وليس من أصل الخِلقة، فقد يكون عن كِبَرِ سِنٍ؛ لما أورده الإمام القرطبي في تفسيره، بقوله: "عَقِرَتِ المرأةُ فهي عَقِيرَةٌ، كأنَّ بِهَا عَقْرًا؛ أيْ: كِبَرًا مِنَ السِّن يَمْنَعُهَا مِنَ الوَلَدِ "[8].

وكذا اشتعالُ الرَّأس بالشَّيب، وكلُّه فيه أَمَارات العَقْرِ؛ فالعَقْرُ أمرٌ ينزل بالمرأةِ من عاهَةٍ أو مرضٍ يمنعُها من الوِلادة.

أَمَّا العُقْمُ لغةً فهو:" العَقْمُ والعُقْمُ هَزْمَةٌ (تقطُّعٌ) تقعُ في الرَّحِم فلا تقبلُ الولدَ "[9]، وفي المفردات للرَّاغب الأصفهاني:" هو اليُبْسُ المانِعُ من قَبُولِ الأَثَرِ، يقال عَقُمَتْ مَفَاصِلُهُ، ودَاءٌ عُقَامٌ: لاَ يَقْبَلُ البُرْءَ والعَقيمُ من النِّساء التي لا تقبلُ ماءَ الفحلِ، يُقالُ عَقِمَتِ المرأةُ والرَّحِمُ..

وريحٌ عقيمٌ هي التي لا تُلْقِحُ سحَابًا.. ويومٌ عقيمٌ؛ لا فَرَحَ فيه" (10)، وأصلُ العُقْمِ أنْ يكون في الرَّحِمِ هَزْمَةٌ أو سَدٌّ.

فالفرق بينهما في كون العقر أمرًا عارضًا لمرضٍ أو كبر سنّ..الخ، أمّا العُقْمُ فأمرٌ مُتعلّق بالمشيئَة وهو أمرٌ واقعٌ خِلقَةً.

وهي نماذج بسيطة تبين عن مدى اتّساق وانسجام المبنى مع المعنى في النّظم القرآني، ودليلٌ مادي على نفي الترادف، ووجه من وجوه الإعجاز في بلاغة النّص القرآني، فهو كلام الرُّحمن، الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان.

أ) الفروق اللّغويّة:

لخص أبو هلال العسكري الفروق اللّغوية في تسعة أنواع، نختصرها فيما يلي:

أ .1) **باختلاف ما يستعمل له اللّفظان اللّذان يراد الفرق بين معنيهما**: فأهل اللّغة يفرّقون بين العلم والمعرفة، بكون العلم يحتاج إلى مفعولين، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما، فقولك (علمت زيدًا) لا يغني ولا يسمع عند المخاطب، إلاّ إذا تضمّن معنى المعرفة؛ بمعنى عرفت زيدًا. أمّا قولك: (علمت زيدًا قائمًا) فهذا تركيبٌ يتضمّن معنى مفيدًا(11).

أ .2) **باعتبار صفات المعنيين اللّذين يطلب الفرق بينهما**: كالفرق بين الحلم والإمهال؛ فالحلم لا يكون إلاّ حسنًا، بخلاف الإمهال، فيكون حسنًا وقبيحًا (12).

أ .3) **باعتبار ما يؤَوَّل إليه المعنيان**: كالفرق بين المزاح والاستهزاء، فالمزاح لا يقتضي تحقير الممازح ولا يؤدّي إلى اعتقاد ذلك التّحقير فيه، بدليل أنّ أتباع الملوك والرّؤساء يمازحونهم، ولا يدلّ ذلك منهم على تحقيرهم، ولا حتى اعتقاد ذلك.. وهذا بخلاف الاستهزاء، فإنّه يقتضي تحقير المستهزأ به(13).

أ .4) **باعتبار الحروف التي تعدّت بها الأفعال**: مثّل أبو هلال العسكري لهذا بالفرق بين العفو والغفران فأنت تقول: عفوت عنه، فتعدّيه بـ(عن)، وتقول: غفرت له، فيتعدى بـ(اللاّم)، فقولك عفوت عنه يقتضي أنّك محوت الذّم، وأسقطت عنه اللّوم، دون أن يقتضي ذلك إيجاب الثّواب له. بينما الغفران يقتضي إسقاط العقاب، وأنّك سترت له ذنبه، ولم تفضحه به، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثّواب، فلا يستحقّ الغفران إلاّ المؤمن المستحقّ للثّواب(14).

أ .5) **باعتبار النَّقيض**: فبضدهما تتميّز الأشياء، ومثال ذلك الفرق بين الحفظ والرّعاية، فإنّه لن يسهل معرفة الفرق بينهما، إلاّ بمعرفة نقيض كلّ منهما. فالحفظ نقيضة الإضاعة، ونقيض الرّعاية الإهمال(15).

أ .6) **باعتبار الاشتقاق**: فمعرفة أصل اشتقاق الكلمة يعين على تبين معناها الصّحيح، ومن ثمة معرفة الفرق بينها، وبين الكلمة الأخرى؛ كالفرق بين السّياسة والتّدبير. فالسّياسة هي النّظر الدّقيق من أمور السّوس، فأصل اشتقاقها من السّوس (الحيوان المعروف)، والتّدبير مشتقّ من

الدّبر، ودبر كلّ شيء آخره والمقصود في تدبير الأمور سوقها وتصريفها إلى ما فيه صلاح العواقب. والأمر نفسه بين القراءة والتّلاوة[16].

أ .7) **باعتبار ما توجبه صيغة اللّفظة من الفرق بينها، وبين ما يقاربها**: كالفرق بين الاستفهام والسّؤال فالاستفهام استفعال، والاستفعال يكون للطلب، وهو لا يكون إلاّ لما يجهله المستفهم، أو يشكّ فيه. أمّا السّؤال فإنَّ السَّائل قد يسأل عمَّا يعلم، أو عمَّا لا يعلم[17].

أ .8) **باعتبار حقيقة اللّفظين أو أحدهما في أصل اللُّغة**: كالفرق بين الحنين والاشتياق، وذلك أنَّ أصل الحنين في اللّغة عبارةٌ عن صوتٍ من أصوات الإبل، تحدثه إذا اشتاقت إلى أوطانها، لكن كثر ذلك حتى أجري اسم كلّ واحدٍ منهما على الآخر[18].

أ .9) **مراعاة الأحوال**: حيث تختلف الأسماء باختلاف الأحوال، فلا يقال مائدة إلاّ إذا كان عليها طعام وإلاّ فهي خوان، ولا يقال كوز إلاّ إذا كانت له عروة، وإلاّ فهو كوب[19].

ب) معجمات الفروق الدّلاليّة عند القدامى والمحدثين:

ب .1) معجمات الفروق الدّلاليّة عند القدامى:

نشأت فكرة التّحقق من الفروق الدّلالية بين ألفاظ العربيّة عمومًا، وألفاظ القرآن الكريم خصوصًا مع بدايات مرحلة التّدوين، وذلك بانتقال عربيّتنا الجميلة من مرحلة الرّواية والحفظ، إلى مرحلة النّسخ والتّدوين. وقد قام بذلك علماء أجلاء، حملوا على عاتقهم هذه المسؤولية الجليلة والعظيمة في نفس الوقت . وإن كان جمع الفروق متأخرًا عن جمع ألفاظ العربية بردح من الزّمن . نظرًا لخطورة وحساسيّة المرحلة الأولى في حياة اللّغة العربية، خاصّة مع دخول الأعاجم في الإسلام . وقد أشرنا إلى ذلك في بداية الفصل . أمّا فكرة تحقيق الفروق الدّلالية بين الكلمات، وجمعها وتبويبها على شكل معاجم، فهي مسألة بلاغية بحتة، وإن استهوت البلاغيين والنّحاة على حدّ سواء.

وبعد تتبع مسار البحث الدّلالي عند العرب، خاصّة المرتبط منه بالجانب البلاغي اكتشفنا هذا الزّخم الفكري والمعرفي، والذي يبين عن مدى إلمام علمائنا بكلّ جوانب الظاهرة الدّلالية (الدّلالة الصّوتية، والدّلالة الصّرفية، والدّلالة النّحوية، والدّلالة المعجميّة)، فانطلقوا من مجرّد مصنّفات ورسائل في مرحلة الجمع المختلط، ثم عرفت مراحل من الصّقل والتّهذيب، لا من حيث الشّكل، ولا من حيث المضمون، أسفرت على معاجم ضخمة، على غرار معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي أسسّت للدّراسات المعجمية في العصر الحديث، لا من حيث جمالية الشّكل، ولا من حيث دقة التبويب والتّصنيف لمضمونه. وسنستعرض فيما يلي أهم هذه المعجمات الخاصّة بالفروق اللّغوية.

بعد الاستقراء والبحث نجد حوالي عشرة من علماء اللّغة والنّحو، لكلّ واحدٌ منهم كتابٌ يحمل هذا الاسم (الفروق)، فلأبي زيد الكلابي كتابٌ بهذا الإسم، ولقطرب كتابٌ كذلك، ولأبي

عبيدة معمر بن المثنى كتابٌ كذلك، ومثله لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري، ولثابت بن أبي ثابت كتابٌ بهذا الاسم وكذلك الأصمعي، ومثله لأبي حاتم السّجستاني، ومثل ذلك لأبي بكر محمد بن عثمان بن جعد، ولأبي الجود القاسم بن محمّد بن رمضان العجلاني مثل ذلك، وللبكري كتاب بهذا الاسم. غير أنّ المصادر لم تعطنا معلوماتٍ وافيةٍ عن هذه الكتب[20].

أمّا ما وصلنا من كتب، يشهد لها بغزارة المادة العلمية وجودة التّصنيف، ودقة التّحقق من المعاني، فهما كتابا: فروق اللّغات لصاحبه نور الدّين الجزائري، وكتاب الفروق اللّغوية لأبي هلال العسكري.

.كتاب فروق اللّغات في التّميز بين مفاد الكلمات لنور الدّين الجزائري[21]:

وفي تأليفه في الفروق ما يدلّ على رأيه في هذه المسألة (التّرادف)، فهو من أنصار الرّفض والتّفنيد لوجود ترادفٍ في العربية، وقد استفتح مقدّمته ببيان أسباب تأليفه لهذا لكتاب، فقد نسبها المؤلف إلى أهمية اللّغة، وضرورة إدراكها، وفهمها فهمًا دقيقًا، لأنها الأداة لفهم مقاصد الكتاب والسّنة وفهم معانيها.. وبسبب تقصير علماء اللّغة وإهمالهم في الغالب بيان الفروق اللغوية بين الكلمات وتسهيلاً على الباحثين في تأليف كتابٍ مستقلٍ يعنى بهذا الجانب.. وفي هذا يقول:" إلاّ أنهم أهملوا في الغالب بيان الفروق بين أكثر الكلمات، ولم يميزوا بين عمومها وخصوصها في الجهات، فأوهم ذلك فيها التّرادف، مع ما بينها في الاستعمال من التَّخالف، وربما سئل بعض الطلبة عن الفرق بين الكلمتين وبيان مفاد اللّفظتين، فيبادر ويقول: هما بمعنى واحد، من غير دليلٍ، أو يتكلف لهما فرقًا لا يروي الغليل مع أنّ معرفة ذلك مما يجب على من تأدّب بآداب الأدباء"[22].

.كتاب الفروق في اللّغة لأبي هلال العسكري:

ولعلّ أبرز مثالٍ لهذا الجهد على المستوى المعجمي كتاب (الفروق في اللّغة) لأبي هلال العسكري، والذي يكشف عن نظرةٍ ثاقبةٍ لمفهوم التَّقارب الدَّلالي (وليس التَّرادف)، يقول أبو هلال في مقدِّمة كتابه: " ما رأيت نوعًا من العلوم وفنًّا من الآداب إلاّ وقد صنِّف فيه كتبٌ، تجمع أطرافه، وتنظِّم أصنافه، إلاّ الكلام في الفروق بين معانٍ، تقاربت حتَّى أشكل الفرق بينها؛ نحو: العلم والمعرفة والفطنة والذَّكاء، والإرادة والمشيئَة، والغَضَب والسَّخَط، والخَطَأ والغلَط، والكَمال والتَّمام، والحُسن والجمال والفَصْل والفَرْق، والسَّبب والعلَّة، والعَام والسَّنَة، والزَّمان والمدَّة.. وما شاكل ذلك، فإنّي ما رأيت في الفرق بين هذه المعاني وأشباهها كتابًا يكفي الطَّالب، ويقنع الرَّاغب، مع كثرة منافعه في ما يؤدِّي إلى المعرفة بوجوه الكلام، والوقوف على حقائق معانيه، والوصول إلى الغرض فيه، فعملت كتابي هذا مشتملاً على ما تقع الكفاية به من غير إطالةٍ ولا تقصيرٍ، وجعلت كلامي فيه على ما يعرض منه في كتاب الله، وما يجري في ألفاظ الفقهاء والمتكلّمين، وسائر محاورات النَّاس، وتركت الغريب الذي يقلُّ تداوله؛ ليكون الكتاب

قصدًا بين العالي والمنحطّ، وخير الأمور أوسطها، وفرقت ما أردت تضمينه إيَّاه من ذلك في ثلاثين بابًا "[23].

أمَّا على المستوى الصَّرفي فنجد علماء العربيَّة قد فرّقوا بين الصِّيغ الصَّرفية المختلفة، وقد تنبَّه أبو هلال في كتابه (الفروق في اللّغة) لما تحدثه الأبنية الصَّرفيَّة المختلفة من آثارٍ في المعنى ومثَّل لذلك بقوله: "ولا يجوز أن يكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنًى واحدٍ، كما لا يكونان على بناءٍ واحدٍ، إلاَّ أن يجيء ذلك في لغتين، فأمَّا في لغةٍ واحدةٍ فمحالٌ أن يختلف اللَّفظان والمعنى واحدٌ.. وقال المحقِّقون من أهل العربيَّة: لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحدٌ، فإذا كان الرَّجل عُدَّةً للشَّيء قيل فيه: مِفْعَلٌ مثل: مِرْجَمٌ ومِحْرَبٌ، وإذا كان قويًّا على الفعل، قيل: فَعُولٌ، مثل: صَبُورٌ وشَكُورٌ، وإذا فعلَ الفعلَ وقتًا بعد وقتٍ، قيل: فَعَّالٌ، مثل: عَلاَّمٌ وصَبَّارٌ وإذا كان ذلك عادةً له، قيل: مِفْعَالٌ، مثل: مِعْوَانٌ ومِعْطَاءٌ ومِهْدَاءٌ، ومن لا يتحقَّق المعاني يظنُّ أنَّ ذلك كلَّه يفيد المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك بل هي . مع إفادتها المبالغة . تفيد المعاني التي ذكرناها، وكذلك قولنا: فَعَلْتُ يفيد خلافَ ما يفيد أَفْعَلْتُ في جمع الكلام، إلاَّ ما كان ذلك من لغتين، فقولك: سَقَيْتُ الرَّجلَ، يفيد أنَّك أعطيتَهُ ما يَشْرَبُهُ، أو صَبَبْتَ ذلك في حلقه، وأَسْقَيتُهُ يفيد أنَّك جعلتَ لهُ سُقْيَا أو حظًّا من الماء، وقولك: شرقت الشَّمسُ يفيد خلاف غَرُبت، وأَشْرَقت يفيد أنَّها صارت ذاتَ إشراقٍ، ورعدَت السَّماء: أَتَتْ برعدٍ وأَرعَدَتْ: صارت ذاتَ رَعْدٍ، فأمَّا قول بعض أهل اللُّغة: إنَّ الشَّعْرَ والشَّعَرَ، والنَّهْرَ والنَّهَرَ بمعنًى واحدٍ، فإذْ ذلك لغتان"[24].

كما تنبَّه أبو هلال للفروق الدَّلالية النَّاشئة عن التَّركيب اللُّغوي؛ وفي ذلك يقول: "وإذا كان اختلاف الحركات يُوجِب اختلاف المعاني، فاختلاف المعاني أنفسِها أولى أن يكون كذلك، ولهذا المعنى أيضًا قال المحقِّقون من أهل العربيَّة: إنَّ حروف الجرِّ لا تتعاقب، حتَّى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللُّغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس، ولهذا المعنى قال المبرِّد: الفرق بين (أبصَرْتُه) و(بَصُرْتُ به) على اجتماعهما في الفائدة: أنَّ (بَصُرْتُ به) معناه: أنَّك صِرْتَ بصيرًا بموضِعهِ، وفَعُلْتُ أي انتقلت إلى هذا الحال، وأمَّا (أَبْصَرْتُهُ)، فقد يجوز أن يكون مرَّةً ويكون لأكثرَ من ذلك، وكذلك (أدخَلتُه) و(دخلتُ به)، فإن قلت: أدخلتُه، جاز أن تُدْخِلَه وأنت معه وجاز ألاَّ تكون معه، ودَخَلْتُ به: إخبارٌ بأنَّ الدُّخول بك، وهو معك بسببك"[25].

ب 2) **معجمات الفروق الدّلاليّة عند المحدَثين:**

نفت كتب الفروق والتّفاسير أيّ وجود لظاهرة التّرادف بين ألفاظ اللّغة العربيّة عمومًا، والقرآن الكريم خصوصًا، كما أثبتنا في بداية الفصل، وهذا الرّأي له ما يدعمه ويعززه في الدّرس اللّساني الحديث، لاسيما في نظريّات تحليل المعنى، ونخص بالذّكر النّظرية التّحليل

التكويني[26]، والتي تقوم على تحديد السّمات الدّلالية لكلا اللّفظين، ثم المقارنة بينهما، لتحديد مستوى التّقارب الدّلالي بينهما نحو: (الأب، الوالد)، (السّنة، العام)، (الأم، الوالدة)..الخ.

وللتّدليل على ذلك، سنرى كيف فرّق القرآن الكريم بين استعمال (زَوْجٌ، امْرَأَةٌ) استنادًا لتحليل السِّمات الدَّلالية الخاصَّة بكلٍّ منهما.

فقد ورد في كتاب المفردات للرَّاغب الأصفهاني قوله: " يُقَالُ لكلّ واحدٍ من القرينين من الذَّكرِ والأنثى في الحيواناتِ المتزاوجة زوجٌ، ولكلِّ قرينين فيها أو في غيرها، وزوجٌ كالخُفِّ والنَّعْلِ، ولكلّ ما يقترنُ بآخرَ مماثلاً له أو مُضَادًّا زَوْجٌ "[27].

ولو أنَّنا أقمنا الفرقَ بين (المرأة) و (الزَّوج) لترجَّح لفظ (الزَّوج) للدَّلالة على قيام الزَّوجيَّة، وما يصاحبُها من حكمةٍ وآيةٍ وسرّ تشريعٍ، وفي كلّ ذلك يكون (الزَّوج) مُراعًى فيه عمومُ اللَّفظِ (الذَّكر والأنثى)، فترى البيان القرآني يستعمل كلمة (زوج) حيثُما تحدَّثَ عن النبي آدمَ وزوجته: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة 35)، وفي ذكر أزواج النَّبي ﷺ قال الحق ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ (الأحزاب 28). وفي مقابل ذلك نجد القرآن يستعمل (امرأة) في مثل: امرأة العزيز، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون. ولو أنَّنا أقمنا مقامها لفظ زوج فقلنا: زوج العزيز، أو قلنا امرأة آدم؛ لاختلَّ سياق النَّظم القرآني، وأصاب الدَّلالة القرآنيَّة التَّحريف، وقال الحقُّ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ (القصص 9).

فالتَّزويج علاقةٌ شرعيَّةٌ تدلُّ على قوَّة ارتباطٍ وتوافقٍ وانسجامٍ بين الزَّوجين، يمكن تحديدها دلاليًّا بالسِّمات الدَّلاليَّة التَّالية: (+ وحدة العقيدة، + وفاء وإخلاص، + ولادة)، فإذا سقطت إحدى هذه السِّمات الدَّلاليَّة أفرغت لفظة (زوج) من محتواها الدَّلالي، واستعملت لفظة (امرأة)؛ وذلك إمَّا بتباينٍ في العقيدة: كإيمان امرأة فرعونَ وبقاء هذا الأخير (فرعون) على الكفر؛ قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (التَّحريم 11)، أو بخيانةٍ: كامرأة نوح، وامرأة لوط، في قوله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التَّحريم 10)، وامرأة العزيز في قوله ﷻ في محكم تنزيله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ (يوسف 30)[28].

أمّا في العصر الحديث، فقد ظهرت بعض المحاولات الجادة في طرق هذا الموضوع (معاجم الفروق)، على غرار معجم الفروق اللّغوية المسمّى بـ (التّحفة النّظامية في الفروق الاصطلاحيّة) لفضيلة الشّيخ العلاّمة علي أكبر بن محمود النّجفي، وهو معجم رتبت وحداته ترتيبًا ألفبائيًّا، ويقول صاحبه في مقدّمته:" وغرضي من وضع هذه الرّسالة وأخواتها، وهي المسائل التّمرينية الصّرفية ومسألة الإخبار بالذي في المسائل النّحوية، والشّكوك الموردة في المسائل المنطقية مع الأجوبة الشّافية لنيل المشتغلين وفوز المتعلمين ما لم ينالوه إلاّ في أيام أو

شهور، بل في عبور سنين ودهور، وسميتها: (بالتّحفة النّظامية في الفروق الاصطلاحيّة)، ورتبتها على حروف الهجاء، من الألف إلى الياء، آخر الحروف"[29].

ج) **النَّظم عند عبد القاهر الجرجاني:**

لقد كان عمل عبد القاهر الجرجاني هو تحليل عمل الألفاظ المتصرّفة بأمر المعاني التي تحكمها والبيان عن وجه حسنها وقبحها، أو خطئها وصوابها، ومراتبها من حيث العلو والنّزول، غير مقطوعةٍ عن أصلها الذي تنتمي إليه، وهو أنها واقعةٌ في خلال كلامٍ ذي نظمٍ وتأليفٍ وتركيبٍ، وبذلك وضع لهذه الأمّة أوّل كتابٍ في تحليل اللّغة (أسرار البلاغة).. أمّا الألفاظ الأربعة الأخرى، وهي: (النّظم والتّرتيب، والتّأليف، والتّركيب) فهي كلّها متعلّقةٌ بالجمل.. ولا بد لهذا التّركيب أن يكون بعض أجزائه متعلقًا ببعض، وقد تكفّل بدراسة وجوه هذا التّركيب ما نسميه (علم النّحو)، والغرض منه هو ضبط صحة تعلق الكلم بعضها ببعض[30]. ويجيب عبد القاهر الجرجاني في سر إعجاز القرآن العرب على أن تأتي بمثله، في قوله: " أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثلٍ مساق كل خبرٍ وصورةٍ، كلّ عظةٍ وتنبيهٍ وإعلامٍ، وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلّ حجةٍ وبرهانٍ، وصفةٍ وتبيانٍ وبهرهم أنهم تأملوه سورةً سورةً، وعشرًا عشرًا، وآيةً آيةً، فلم يجدوا في الجميع كلمةً ينبو مكانها، ولفظةً ينكر شأنها، ويرى أنّ هناك أصلح أو أشبه، أو أحرى ، بل وجدوا اتّساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغٍ منهم . ولو حك بيافوخه السّماء. موضع طمعٍ، حتى خرست الألسن عن أن تدَّعي وتقول"[31].

فالنّظم عند عبد القاهر الجرجاني هو" أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رُسمت لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها"[32]. مع إشارته إلى العامل النّفسي في تحقق التّرابط بين الألفاظ ودلالاتها، قال عبد القاهر الجرجاني: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النّطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[33]، وبهذا تطور مفهوم النّحو عنده من نحو الإعراب المقتصر على الألفاظ، ليتحوّل إلى نحو الجملة، وذلك بدراسة العلاقات الدّلالية القائمة بين وحدات التّراكيب، وضمن سياقاتٍ محدّدةٍ. وهو ما عبر عنه أبو هلال العسكري بمصطلح (الرّصف)، إذ يقول: " وحُسن الرَّصْفِ أن توضع الألفاظ في مواضعها وتُمَكَّنَ في أماكنها.. وتُضَمَّ كلُّ لفظةٍ إلى شكلِها وتُضَافَ إلى لفقِها"[34].

ولعلّ في كلام أبي هلال العسكري السَّابق إشارة بديعة، لطالما شغلت هذا العالم، وهي الاقترانات اللَّفظيَّة وأثرها في كشف الفروق؛ إذْ قد يُعرَف الفرق في المفردة بمعرفة قريناتها ولفقِها. ومجاله في الدّراسات الأسلوبيّة الحديثة هو الأسلوبيّة البنويّة. وفي هذا السّياق يقول الدّكتور

محمد الأمين شيخة: " وقد اختلفت الآراء في تحديد ميادين بحثها، فمنها ما وقف عند حدود البنية اللّغوية، في سطحها الخارجي (الشّكل)، مكتفيًا باستكشاف العلاقات التي تربط بين مكوناتها، وهي أشبه ما تكون بـ(نظريّة النّظم)، التي اكتملت على يد عبد القاهر الجرجاني.. ومن هذه الآراء ما تجاوز البنية اللّغوية السّطحية للنّصوص الأدبيّة، إلى ما يرقد تحتها من قيم نفسيةٍ أو سوسيولوجيةٍ، أو غيرها.."[35]

وعلى هذا الأساس يقرّ الدّكتور تمام حسّان أنّ أدنى محاولةٍ لتفسير العلاقات السّياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني، صاحب مصطلح التّعليق، وقد كتب الجرجاني دراسته الجادة في كتابه (دلائل الإعجاز) تحت عنوان (النّظم)[36]. ولذلك فإنّه ينبغي عند محاولة تفسير النّصوص الأدبيّة ألاّ نكتفي بتسجيل القيمة المعجمية لألفاظها، بل لا بد من ملاحظة البيئة الجديدة التي وجدت فيها هذه الألفاظ[37].

ومما يحز في النّفس ويترك فيها مرارةً، هو تغني وتأثر الباحثين العرب المحدثين بالدّراسات الغربية إمّا جاهلين أو متجاهلين لآثار اللّغويين العرب القدامى في هذا المجال، فتجدهم يتهالون على دراسة العلاقات التّركيبية والاستبداليّة في الجمل عند دي سوسير[38]، باعتبارها (الجملة). في نظره . النّمط الرّئيس من أنماط النّظام، الذي يتألف من وحدتين أو أكثر من الوحدات اللّغوية[39]، فالأمّة العربيّة أمّة بيان، ولعلّ ما يفسّر ذلك هو شغف وولع المغلوب بتقليد الغالب. فالاهتمام بحسن ملاءمة المبنى للمعنى لتحقق سلامة التّركيب، له ما يعضده في الدّراسات اللّسانية العربية، فيما قبيل عبد القاهر الجرجاني، فقد كان لسيبويه إسهاماتٌ لا تمارى ولا ترد في باب استقامة التّركيب وحسن دلالته[40] ورصيد معرفي مازال يملك الشّرعية المعرفيّة إلى يومنا هذا، ويعدّ أساسًا للدّرس اللّساني الحديث.

أمَّا عن ربطنا نظريَّة النَّظم بنظريَّة السِّياق؛ فلأنَّها نشأت وترعرعت في رحاب الإعجاز القرآني إذْ هي أحد وجوه الإعجاز اللُّغوي، ولا سيّما البياني، ولها ارتباطٌ وثيقٌ بموضوع بحثنا؛ إذْ بفهم نظريَّة النَّظم يزول الغموض المكتنف للألفاظ المتقاربةِ المعاني، المظنونِ ترادفُها، فضلاً عن اعتمادنا على موروثنا اللُّغوي قبل الدَّرس اللِّساني الغربي الحديث. فقد كان علماء العرب القدامى على درايةٍ عميقةٍ بأهمية السّياق في الكشف عن المعاني الخفيّة والدّلالات القصية، أو ما يعرف بما وراء السّطور، وخير دليلٍ على ذلك نظرية النّظم لعبد القاهر الجرجاني، فكلامه (الجرجاني) صريحٌ؛ في أنَّه لا يقوم مقامَ المفردة القرآنية ما يشابهها أو يقاربها؛ بل لها من الاتّساق والالتئام في سلكها ما لا يمكن أن تُبدَل بغيرها، فنظمُه في سياقه كنظم الدُّرَرِ في السِّلك، بل هو أكثرُ روعةً وحُسنًا. وهو ما تنبه له المتأخرون من علماء اللّسانيات الغربيين، ويتجلى ذلك في قولهم: " لا يمكن فهم أيَّة كلمةٍ على نحوٍ تامٍ بمعزلٍ عن الكلمات الأخرى ذاتِ الصِّلة بها، والتي تحدِّد معناها "

[41]. وتنسب النظريَّة السِّياقيَّة . في الدِّراسات الحديثة . إلى اللُّغوي الإنكليزي **جون روبرت فيرث** (R. Firth)

د) **نسقيَّة المقال والمقام في النَّظم القرآني:**

تصادفنا أثناء قراءة القرآن الكريم حركات أو غرائب نحويّة، لم نعهدها بنظرنا النّحوي القاصر، فتفسد علينا متعتنا، وتعثر فهمنا وتدبرنا، وحفظنا لكلام الله المعجز، الذي يجب على الجميع تناوله وقراءته، وحفظه وتدبّره، لذا لا بدّ من الوقوف على بعض هذه الغرائب، لجعلها أليفةً أمام المتناولين، الباحثين والمتدبّرين، وأسهل عليهم التَّدبر والفهم، وأدفع تلك العراقيل والحواجز المعيقة التي يتخذها البعض من النّاس ذريعةً لعدم تناوله، ولأفوت الفرصة على المغرضين، الذين ينفذون من بعض هذه الغرائب للنَّيل منه، وذلك ببحثي وتنقيبي للتَّعرف على الاعتبار القرآني الجليل، الذي يضع النِّقاط على الحروف، ويجعل الغريب مألوفًا بليغًا محبَّبًا، والصّعب سهلاً ممتعًا مقربًّا، فتتبدَّد الحيرة وتزول العراقيل، وتعود المتعة والتَّدبر لأدقّ التَّفاصيل[42].

ومن هنا نحن محتاجون إلى (فقه) للنّحو، يصل إلى درجة الضّرورة. صحيح أنّ قسمًا من المسائل المتعلقة بالمعنى عرض لها علم النّحو وعلم البلاغة، لكن لا يزال كثيرٌ منها دون نظر[43].

ولقد استطاع الدَّارسون أن يربطوا وجود الكلمة بسياق الآية، فبيَّنوا حاجة المقام إليها واستحقاقها للمكان، وتفرُّدها به، وقد عوَّلوا على منطق اللُّغة العربيَّة، فكان معيارًا واضحًا، وعوَّلوا على التذوُّق، فكان معيارًا ناجحًا . على الأغلب . في تأمُّلات القدامى منهم.. وقد دأب القدامى في الإحاطة بالأمر، وغالبًا ما استعانوا بالفروق ليبيِّنوا أهميَّة المفردة، فكانوا موضوعيّين.

ولا شكّ أنّ كلّ مفردةٍ وضعت وضعًا فنيًّا مقصودًا، في مكانها المناسب، وإنَّ الحذف من المفردة مقصودٌ، كما أنَّ الذّكر مقصودٌ، وإنَّ الإبدال مقصودٌ، كما أنَّ الأصل مقصودٌ، وكلُّ تغيير في المفردة أو إقرارٌ على الأصل مقصودٌ، له غرضه[44].

د .1) **أسلوبا الحذف والزّيادة:**

. **أسلوب الحذف**:

ومن أمثلة الحذف أنّه قد يحذف من التّعبير القرآني من الكلمة نحو (استطاعوا) و(اسطاعوا) و(تَتَنَزَّل) و(تَنَزَّل)، و(تَتوفَّاهم) و(تَوَفَّاهم)، ولم يكن ولم يكُ.. وما إلى ذلك. وكلّ ذلك لغرض وليس اعتباطًا، فالتّعبير القرآني تعبيرٌ فني مقصودٌ، كلّ كلمةٍ، بل كل حرفٍ إنما وضع لقصدٍ.

إنّ القرآن يحذف من الكلمة لغرضٍ، ولا يفعل ذلك إلاّ لغرضٍ، ومن ذلك على سبيل المثال:

أنّه يحذف من الفعل للدّلالة على أنّ الحدث أقلّ مما لم يحذف منه، وإنّ زمنه أقصر، ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل للدّلالة على الاقتطاع من الحدث، أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار، بخلاف مقام الإطالة والتّفصيل، فإذا كان المقام مقام إيجاز أوجز في ذكر الفعل، فاقتطع منه، وإذا كان في مقام التّفصيل، لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوفى صورة. نحو قوله ﷻ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوه وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف 97)، وذلك في السّد الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنّحاس المذاب. فالصّعود على هذا السّد أيسر من إحداث نقبٍ فيه، لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف فقال (فما اسطاعوا أن يظهروه)، بخلاف الفعل الشّاق الطّويل، فإنّه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغةٍ له، فقال (وما استطاعوا له نقبًا)، فخفَّف بالحذف من الفعل، بخلاف الفعل الشّاق الطّويل[45]. فالقرآن يراعي المباني التي تتناسب والمقام الذي وردت فيه وهذا من باب الإعجاز البياني فيه.

. أسلوب الزّيادة:

ومن أساليب الزّيادة قوله ﷻ في محكم تنزيله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى 43)، أمّا في قوله ﷻ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان 17)، فلم يكن هناك زيادة. فما الغرض البلاغي من ذلك؟

ففي لقمان قال (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ) وفي الشّورى (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ) زاد المغفرة على الصّبر. أيّهما الأصعب على الإنسان، أن يصبر؟ أو أن يصبر ويغفر إذا أُوذي؟

أكيد أن يصبر ويغفر أصعب؛ لذلك أكّد (إنّ ذلك لمن عزم الأمور). فلما زاد الثقل على الإنسان، أكّد وقال (إنّ ذلك لمن عزم الأمور)، أمّا في لقمان كان صبرًا فقط. ولما صبر وغفر أكّد باثنين (إنّ واللاّم) وفي لقمان صبر واحد، فأكّد بواحد (إنّ)[46].

د 2) دلالة الزّمن والتّقديم والتّأخير:

. دلالة الزّمن:

كما وظف الأزمنة حسب ما يقتضيه السّياق والمقام، وهذا مثال آخر على بلاغة النّص القرآني، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وعَلَانِيَةً يَرجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبورَ﴾ (فاطر 29). فلماذا جاء بالفعل (يتلون) مضارعًا، وبالفعلين (أقاموا) و(أنفقوا) ماضيين؟ وما سرّ هذا التّرتيب؟

الجواب: يقول الدّكتور تمام حسّان: "معنى الزّمن يأتي على المستوى الصّرفي من شكل الصّيغة وعلى المستوى النّحوي من مجرى السّياق"[47]. لذا جاء بالفعل (يتلون) مضارعًا للدَّلالة على الاستمرار والتَّجدد لأنَّه أكثر مما بعده، فإنّ الذين يقيمون الصّلاة لابدّ أن يتلوا فيها كتاب الله، ولا تكون صلاةٌ من غير تلاوةٍ. والتّلاوة قد تكون في غير الصّلاة، ولا يشترط فيها ما يشترط في

الصّلاة من وضوءٍ، أو استقبال قبلةٍ، أو أوقاتٍ معينةٍ، فهي أكثر من الصّلاة، وهي . لا شك . أكثر من الإنفاق فجاء بالفعل فيها مضارعًا للدّلالة على الاستمرار والتّجدد.

. دلالة التّقديم والتّأخير:

وأمَّا سرُّ التَّرتيب في الآية فهو واضحٌ، فإنَّه تدرَّج من الكثرة إلى القلة، فالتِّلاوة، أكثر من الصَّلاة . كما ذكرنا سابقًا . والصَّلاة أكثر من الإنفاق، فإنَّ الصَّلاة المكتوبة فقط خمسة أوقاتٍ في اليوم واللَّيلة، عدا السُّنن، والإنفاق لا يكون بهذه الكثرة.

هذا إضافةً إلى أنّ الصَّلاة فرضٌ على الجميع، بخلاف الإنفاق، فإنَّ كثيرًا من المصلين لا يجب عليهم إنفاقٌ، وإنما قد تصرف إليهم بعض وجوه الإنفاق، كما هو معلوم[48].

وقد راعى علماء البيان القرآني مناسبة المفردات للمقام الذي تأتي فيه، وأنَّ المعنى إنمَّا يطلب من اللّفظة في مقامها، ممَّا يقطع السَّبيل أمام المرادفات أن تقوم مقامها، ويعدُّ الجاحظ (ت 255 ه) أوَّل من أشار إلى ذلك؛ فقد ذكر أنَّ النَّاس يضعون ألفاظًا في غير موضعها الصَّحيح، من دون مراعاة الفروق بينها، إذ يقول: "وقد يستخفُّ النَّاس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أنَّ الله . تبارك وتعالى . لم يذكر في القرآن الجوع إلاَّ في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والنَّاس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع، في حالة القدرة والسَّلامة، وكذلك ذكر المطر لأنَّك لا تجد القرآن يلفظ به إلاَّ في موضع الانتقام، والعامَّة وأكثر الخاصَّة لا يفصِّلون بين ذكر المطر والغيث"[49]، ولكنَّ الجاحظ اكتفى بهذه الإشارة السَّريعة في مقدَّمة كتابه (البيان والتَّبيين). فعبارته الشّهيرة (لكلّ مقام مقال) خير دليل على إدراك علماء البلاغة لأهمية المقام في تحديد دلالات التّراكيب عمومًا، ودلالات الألفاظ خصوصًا.

ومن هنا كان إيثار الفرق الدّلالي من أسس علماء الإعجاز في كشف مقام الآيات، ولاسيما اختيار المفردة في موضعها، واتَّبع هذا النَّهج الكثير من المحدَثين؛ فبيَّنوا تفرُّد المفردة القرآنيَّة بمكانها من حيث ملاءمتُها للسِّياق الذي تقوم فيه، فقد لا تكون للكلمة مزيَّةٌ في كلامنا، حتَّى إذا قرأناها في الآيات وجدنا أنَّها تتجاوز كلَّ تعابيرنا، متمكِّنةً من موضعها بمنزلة اللَّبنة المطلوبة للبناء الكلِّي.

وفي الأخير يمكن القول أنَّ للتَّرادف والتَّأليف فيه أثرًا كبيرًا في نشوء هذه الظاهرة، فقد اهتمَّ العلماء بجمع الألفاظ المترادفة وتدوينها في فصولٍ أو كتبٍ كاملةٍ اهتمامًا بالغًا، وكانت كلُّ طبقةٍ منهم تأخذ ما جمعته سابقتها من المترادفات، وتزيد عليها ما تستطيع. والحقُّ أنَّ ثمة فروقًا واضحةً أو خفيَّةً بين قسمٍ كبيرٍ من المفردات التي يظنُّ بأنها مترادفةٌ، فهي تختلف في درجاتها أو أنواعها، أو غير ذلك فالفعل "نظر" . مثلاً . يختلف عن (رنا) و(لحظ) و(لمح).. وغيرها، كما أنَّ قسمًا من المترادفات هي صفاتٌ لمسمَّياتها؛ فللسَّيف أسماءٌ كثيرةٌ منها: الفيصل، المهنَّد،

الحاسم.. ومن جرّاء ذلك تقاربت معاني ودلالات ألفاظٍ كثيرةٍ في اللُّغة العربيَّة، وقد كانت الفروق بين تلك الكلمات واضحةً لدى القدماء، بيد أنَّه بمرور الوقت وكثرة الاستعمال وضعف السَّليقة والاختلاط بالأعاجم اضمحلَّت تلك الفروق بين الكلمات المتقاربة، وصار النَّاس يستعملونها بمعنى واحدٍ؛ ولذلك تأهَّب بعض العلماء لهذا التَّساهل، وعدُّوه ضربًا من اللَّحن، وحرصوا على تنقية اللُّغة وتأصيلها، محتجِّين بالنُّصوص القديمة، ومعوِّلين على ما ذكره الأقدمون من اللُّغويّين، وما ورد عن العرب الفصحاء إبَّان عصور الاحتجاج، فألَّفوا كتبًا وصنَّفوا أبوابًا.

ونخلُصُ ممَّا تقدَّم إلى أنَّ القولَ بوجود ترادف تام بين ألفاظ العربية يعدّ ضربًا من الخيال ذلك أنّ أصحاب هذا التخريج انطلقوا من كون اللّغة اصطلاحيّةً، بالإضافة للتّنوع اللّهجي في شبه الجزيرة العربيّة. غير أن المدقق في دلالات الألفاظ في سياقاتها المختلفة، يكتشف مدى غنى هذه اللّغة بمعانيها. فالقولُ بالتّرادف يحيلنا إلى غنى اللّغة العربية من حيث الكم، ولكنّ تفنيده يغني العربيّة من حيث المعاني. كما امتازت أغلب آراء المؤيّدين بتبعيّة التلميذ لشيخه، وهي آراء تحتكم لصوت العاطفة، أكثر من سماعها صوت العقل، على غرار اللّغوي أحمد بن يحي ثعلب مع شيخه ابن الأعرابي، ثم شهد الخلاف مرحلةً جديدةً، مبنيةً على الدّراسة والتّحليل، وتمثل ذلك في أصحاب معاجم الفروق اللّغوية، ويتقدّمهم أبو هلال العسكري في (الفروق في اللّغة)، والذي أسّس . بصنيعه هذا . لمعاجم أخرى، إلى يومنا هذا. أما نسبته (التّرادف) إلى لغة القرآن فهو أمرٌ محسوم، نظرًا لتوقيفيّة لغته، فهو كلام الله المعجز، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وهو ما أكدته معاجم الفروق اللّغوية بين ألفاظه. ذلك أنّ دعاة التّرادف اكتفوا باستشارة المعجم لتحديد الدَّلالة الأصليَّة (المعنى المركزي) ونأوا بأنفسهم عن إسقاطها في السِّياقات التي وردت فيها، لتحديد الدّلالات الثَّانويّة، ثمَّ الرَّبط بين الدَّلالتين حتَّى نصنِّف درجات القرابة بين اللَّفظين، ونحدِّد المستوى اللُّغوي، ثمَّ نقوم بعمليَّة الاستبدال ونحكم بعد ذلك بوجود التَّرادف من عدمه، فقد أثبتت الدِّراسات اللُّغويَّة الحديثة أنَّ لسياق المقام الأثرُ الواضحُ في بيان الفروق الدَّلاليَّة بين ألفاظ العربيَّة عمومًا، وألفاظ القرآن الكريم خصوصًا، وهو دليل ارتباط المفردة القرآنيَّة بالمناسبة التي تقتضيها؛ حتى تطرب السّامعين والقارئين بسحر بيانها؛ من حيث إنَّها تحقِّق إيحاءً دلاليًّا، وتوسُّعًا في ظلال المعنى، بحيث إذا أُبدِلت بغيرها، ذهب رونقُ البلاغة، وغابت تلك الإيحاءات النَّفسيَّة، والظِّلال المعنويَّة.

الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج5، دار صادر، بيروت، لبنان، ص3333.

[2] الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ج2، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص499.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص329.

[4] الرّاغب الأصفهاني: المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ج2، ص531.

[5] محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، السّعودية، 1993، ص177.

[6] ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص1675.

[7] الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ج2، ص443- 444.

[8] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، مؤسسة الرسالة، ط1، لبنان، 2006، ص79.

[9] ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص3050.

[10] الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ج2، ص445.

[11] أبو هلال العسكري، الفروق في اللّغة، دار الكتب العلمية، لبنان، ص17 أو ص72.

[12] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص17 أو ص195.

[13] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص17 أو ص248.

[14] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص230.

[15] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص17.

[16] أبو هلال العسكري، الفروق في اللّغة، ص18.

[17] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص18 أو ص28.

[18] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص20.

[19] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص20.

[20] محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص96-97.

[21] هو نور الدين بن نعمة الله بن عبد الله الموسوي الجزائري، ولد ببلدة **تستر سنة 1077 هـ**، درس على يد والده وعلى كثير من مشايخ عصره، توفي سنة 1158 هـ، وله بعض الآثار: كتاب مبسوط في النحو، ورسالة في بعض الأحاديث المشكلة، ورسالة في أحكام الطهارات، بالإضافة لكتاب الفروق في اللغات.

[22] محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، الفروق للغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص101-102.

[23] عمر عبد المعطي أبو العينين، الفروق الدّلاليّة (بين النَّظريَّة والتَّطبيق)، منشأة المعارف، مصر، ص20.

[24] أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص12- 13.

[25] أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص13.

[26] جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، العراق، 1987م، ص84.

[27] الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ج1، ص284- 285.

(28) محمَّد محمَّد داود، معجم الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنّشر، ط1، القاهرة، مصر، 2008م، ص279- ص280. بتصرُّف

(29) علي أكبر بن محمود النجفي، الفروق اللغوية المسمى التحفة النظامية في الفروق الاصطلاحية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، 2016م، ص3.

(30) محمد محمود شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، ط1، مصر، سنة 2002م، ص104- 105.

(31) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ج1، المكتبة العصريَّة، بيروت لبنان، ص81.

(32) عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، ج1، ص84.

(33) عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، ج1، ص49-50.

(34) أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تحقيق: د. محمد أبي الفضل إبراهيم ود. علي البجاوي، مصر، 1971م، ص167.

(35) محمد الأمين شيخة، إشكالية دراسة الأسلوب وطائلة الشّكل والمعنى، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها (مجلة محكمة)، العدد 6، عن كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي (الجزائر)، 2014م، ص10.

(36) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطبعة علم الكتب، ط5، لبنان، 1986م، ص185.

(37) المهدي براهيم الغويل، السّياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا، 2011م، ص57.

(38) أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ط2، الإمارات العربية المتحدة، 2013، ص225.

(39) بن الدين بخولة، الإسهامات النّصية في التراث العربي (تخصص معجميات)، إشراف: أ.د محمد ملياني، جامعة وهران، 2016م، ص81.

(40) سيبويه، الكتاب، ج1، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، مصر، 1988، ص25-26.

(41) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، العراق، 1987م، ص83.

(42) عزيزة يونس بشير، النّحو في ظلال القرآن الكريم، دار مجدلاوي، ط1، عمّان، الأردن، 1998م، ص23.

(43) فاضل صالح السّامرائي، معاني النّحو (مقدمة الكتاب)، ج1، دار الفكر، القاهرة، مصر، ص8.

(44) فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار العاتك، ط2، مصر، 2006، ص4.

(45) فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص9.

(46) فاضل صالح السّامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر، ط3، عمان، الأردن 2003م، ص1801.

(47) تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطبعة علم الكتب، ط5، لبنان، 1986م، ص104.

(48) فاضل صالح السّامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصّحابة، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2008م، ص153.

(49) الجاحظ، البيان والتَّبيين، ج2، دار مكتبة الهلال، ط1، بيروت، لبنان، 1988م، ص20.